الكوارث الطبيعية والإبداع الفني

أمجد شفيق

علاقة الإبداع الفني بالكوارث الطبيعية هي علاقة عميقة ومتجذرة؛ حيث يلعب الفن دورًا فريدًا في التعبير عن تجارب الناس مع هذه الكوارث، خاصة التجارب العاطفية والإنسانية منها. كما أن الأعمال الفنية –مثل الرسم والشعر والتصوير الفوتوغرافي والأفلام الوثائقية والدرامية– يمكنها أن تروي قصصًا كثيرة ومؤثرة تتخطى الحواجز الثقافية والجغرافية، وتدعم عمليات التعافي لضحايا هذه الكوارث، وأيضًا لجميع متابعيها.

ويمكن تعريف الكوارث الطبيعية على انها أحداث مفاجئة، تحدث بسبب بعض الظواهر الطبيعية التي تحمل خطورة كبيرة، وتتسبب في دمار واسع يؤثر على حياة الإنسان والممتلكات والبيئة. تعرفها المنظمات الدولية بأنها حالات مفجعة تعطل نمط الحياة اليومية، وتؤدي إلى معاناة الناس واحتياجهم للحماية والرعاية الطبية والاجتماعية. كما تتسبب في خسائر جسيمة تفوق قدرة الموارد الوطنية على مواجهتها، التي تتطلب معها الاعتماد على المساعدات الدولية.

وتنتج هذه الكوارث عن عوامل طبيعية مثل حركة القشرة الأرضية، والتي تؤدي إلى حدوث الزلازل، واندفاع المواد المنصهرة في البراكين، وارتفاع منسوب المياه في الفيضانات. إضافة إلى ظواهر طبيعية أخرى مثل ازدياد حرارة الشمس، وحركة باطن الأرض التي تتسبب في حدوث الأمواج العاتية الملقبة بتسونامي. كما

يمكن أن تؤثر الأنشطة البشرية في زيادة تأثير هذه الكوارث، سواء بحرق المخلفات الصناعية بكثرة، أو صرفها في مياه الأنهار. بالإضافة إلى ممارسة الأنشطة الصناعية الخطرة. والتعدي الجائر على البيئات الطبيعية. هذا وتتفاوت شدة الكوارث الطبيعية حسب قوة الحدث وموقعه ومدى استعداد السكان له. وعادةً ما تؤدي هذه الكوارث إلى خسائر بشرية وبيئية كبيرة، بالإضافة إلى خسائر اقتصادية جسيمة. كما أنها تؤثر بشكل خاص على الفقراء الذين يعانون من فقدان الأصول والموارد الاقتصادية. مما يؤدي إلى حدوث إضرابات خطيرة في البيئة والمجتمع. هذا وتحاول كثير من الدول بذل مزيد من الجهود للحد من هذه الكوارث، بالإضافة إلى كيفية إدارتها والتعامل معها للحد من أضرارها.

ويمكن تصنيف الكوارث الطبيعية إلى عدة أنواع رئيسية مثل الكوارث الجيوفيزيائية –مثل الزلازل التي تعتبر اهتزازات مفاجئة في الأرض، ناجمة عن حركة القشرة الأرضية، وتسبب دمارًا واسعًا في المباني والبنية التحتية للمواقع التي تحدث فيها– والبراكين وهي عبارة عن ثوران للمواد المنصهرة والغازات في باطن الأرض تنطلق إلى خارجها بقوة، مما يؤدي إلى تدمير المناطق المحيطة بها. وتُعتبر أمواج تسونامي أيضًا من الكوارث الجيوفيزيائية، وتنتج عن زلازل أو براكين تحت الماء. مما يسبب فيضانات مدمرة على السواحل التي تحدث عندها. وهناك نوع آخر من الكوارث الطبيعية وهي الكوارث المناخية، مثل الأعاصير والعواصف، وتكون على هيئة عواصف هوائية دوارة وعنيفة. عادة ما تنشأ فوق البحار الاستوائية. وتسبب فيضانات وأضرارًا ماديةً

وبشريةً كبيرة. وتُعتَبَر موجات الحر الشديدة واحدةً من هذه الكوارث، التي تؤدي بدورها إلى سرعة انتشار حرائق الغابات، وفيها تشتعل آلاف الأفدنة من أشجار الغابات، نتيجة لعوامل طبيعية مثل البرق، أو لعوامل بشرية مثل الحرق العشوائي، وقد تستمر لفترات زمنية طويلة. ويمكن أن تتسبب في كوارث اقتصادية وبشرية كبيرة. وهناك أيضًا كارثة الجفاف، وفيه تقل الأمطار لفترات طويلة، مما يؤدي إلى نقص المياه، الذي يقود بدوره إلى المجاعات. أيضًا هناك الكوارث الهيدرولوجية والتي تتمثل في الانهيارات الثلجية والفيضانات. وهي ارتفاعات مفاجئة في منسوب مياه البحار والمحيطات والأنهار. والتي تنتج عن أمطار غزيرة أو ذوبان أو انهيار بعض المناطق الثلجية، مما يؤدي إلى اندفاع هذه الفيضانات إلى الشواطئ، مسببة كثيرًا من الخسائر سواء البشرية والمادية. وأيضًا هناك الكوارث البيولوجية مثل انتشار الأوبئة في العالم كله أو في إحدى المناطق به. مثل وباء الإنفلونزا أو ما عرف بالأنفلونزا الإسبانية، هذا الوباء الذي أصاب العالم عام ١٩١٨، وأودى بحياة ٥٠ مليون شخص. ومثله منذ سنوات قليلة كان انتشار فيروس كورونا في جميع أنحاء العالم مع نهاية عام ٢٠١٩ وبداية عام ٢٠٢٠، الذي أدى إلى وفاة ملايين البشر في وقت محدود جدًّا. وهذا يقودنا إلى بعض أشهر الكوارث الطبيعية التي ضربت العالم عبر التاريخ. نذكر منها فيضان نهر اليانجتسي في عام ١٩٣١، وهو الفيضان الأكثر دموية في التاريخ، إذ غمر مناطق شاسعة من الصين وأثر على أكثر من ٤٠ مليون شخص. وتتراوح تقديرات الوفيات نتيجة لهذه الكارثة ما بين ٣ إلى ٤ ملايين شخص. إما بسبب الغرق او المجاعة أو

الأمراض التي سببها هذا الفيضان. أيضًا هناك زلزال هايتي، تلك الجزيرة الموجودة على البحر الكاريبي بأمريكا اللاتينية. هذا الزلزال المدمر الذي حدث عام ٢٠١٠ بقوة ٧ درجات. وأدى إلى مقتل ٣٠٠ ألف شخص، بالإضافة إلى نزوح مئات الآلاف من السكان بسبب انهيار البنية التحتية والهزات الأرضية المتكررة. أيضًا هناك تسونامي المحيط الهندي، والذي حدث عام ٢٠٠٤ نتيجة حدوث زلزال قوي تحت مياه المحيط الهندي بقوة ٩ درجات، واستمر لمدة ١٠ دقائق كاملة قبالة أحد السواحل الإندونيسية، مطلقًا موجات من المياه وصل ارتفاعها إلى ٣٠ مترًا، وسرعتها إلى ٨٠٠ كم في الساعة. مما أودى بحياة ٢٣٠ ألف شخص، وتشريد حوالي ٢ مليون شخص. بالإضافة إلى الأضرار المادية والاقتصادية الجسيمة. والتي وصلت إلى تدمير كثير من الموانئ والطرق في هذه المناطق. أيضًا هناك زلزال طوكيو– يوكوهاما، الذي حدث عام ١٩٢٣، وبلغت قوته ٨ درجات، وأدى إلى مقتل أكثر من ١٤٠ ألف شخص. أيضًا هناك إعصار بورما أو إعصار نرجس عام ٢٠٠٨، والذي أدى إلى مقتل ٨٥ ألف شخص، بالإضافة إلى مئات الآلاف من المشردين. وأخيرًا كارثة جفاف القرن الأفريقي بين عامي ٢٠١٠ و٢٠١٢ والذي تسبب في وفاة ٢٦٠ ألف شخص، معظمهم من الأطفال.

ورغم المآسي والمصائب والخسائر البشرية والمادية التي خلفتها الكوارث الطبيعية، إلا أن تلك الكوارث قد نجحت وبشكل كبير في استفزاز كثيرٍ من الفنانين لإنتاج أعمال إبداعية، تعكس تجارب الإنسان مع هذه الحوادث الكارثية، وتوثقها بصيغ فنية متنوعة تحمل رسائل إنسانية وعاطفية عميقة. فالفن لا يقتصر دوره في

مواجهة الكوارث على مجرد توثيقها فحسب. بل يلعب دورًا مهمًّا في التواصل مع الجمهور، ونقل فهم أعمق لمخاطر الكوارث وتأثيراتها على حياة الناس وسبل عيشهم. وهذا ما نجده ف تاريخ الفنون وحتى عصرنا الحالي؛ حيث استلهم كثيرون من الفنانين والمبدعين من الكوارث الطبيعية والأوبئة والحروب رؤى مختلفة لإنتاج أعمال خالدة. مثل لوحة "انتصار الموت" للرسام الهولندي بيتر بروجل، والتي رسمها في عام ١٥٦٢ ميلاديًّا، وفيها قدم تصورًا لأجواء الاضطراب الاجتماعي والرعب الذي جاء بعد انتشار مرض الطاعون القاتل في أجزاء واسعة من أوربا في أثناء القرون الوسطى. أيضًا لوحة "الموجة العظيمة" للفنان الياباني هوكوساي. التي رسمها ما بين عام ١٨٢٩– ١٨٣٣ ميلاديًّا، والذي استلهم من موجات تسونامي بعض الأفكار التي خدمت رؤيته الفنية. وغيرها من الأعمال الفنية الإبداعية، التي جسدت الصراع بين الحياة والموت، كنتيجة لتأثير هذه الكوارث الطبيعية على المجتمعات.

أما في وقتنا الحالي فقد استمر الفن في لعب هذا الدور من خلال طرح فهم أعمق لمخاطر تأثير الكوارث الطبيعية على نفوس وعقول الناس وطريقة معيشتهم. حيث استخدم الفنانون أعمالهم للتعبير عن الألم والآثار النفسية للكوارث، وأيضًا للتضامن مع الضحايا. كما حدث في عديد من المعارض الفنية التي عبرت عن تأثير جائحة كوفيد ١٩ على العالم بأكمله. كما حفزت الكوارث الطبيعية الإبداع الإنساني على تقديم الكثير من الرؤى الإنسانية التي تتعلق بالكوارث الطبيعية. إذ اعتبرها عديدٌ من الفنانين والكُتَّاب مصدرًا لإلهامهم

للتعبير عن أفكارهم، وبطرق فنية متعددة، مما ساعد على نقل رسائلهم إلى المتلقي بصورة خاصة جدًّا. وذلك لكثير من الأسباب التي نذكر منها أن هذه الكوارث الطبيعية تثير كثيرًا من المشاعر القوية لدى الفنانين كالخوف والحزن والأمل والصمود. مما يدفعهم إلى التعبير عن هذه المشاعر سواء عبر الرسم أو التصوير أو الموسيقى. وذلك لتوثيق هذه التجارب الإنسانية والتواصل مع المتلقي على المستوى العاطفي. ومنها أيضًا أن الفن هو وسيلةٌ لسرد قصص المجتمعات المتضررة، وتجاوز الحواجز الثقافية. مما يعزز التعاطف والتفاهم بين الناس، ويساعد في توصيل رسائل حول مخاطر الكوارث الطبيعية، وأهمية الاستعداد لها. أيضًا تساعد الأعمال الفنية المختلفة على التعافي النفسي للمجتمعات المتضررة، وتعمل كجسر للتواصل والتضامن مع المتضررين من هذه الكوارث. كذلك تحفز الكوارث الطبيعية الفنانين على تناول قضايا البيئة والتغير المناخي، مما يساهم في نشر وعي جديد، حول العلاقة بين الإنسان والطبيعة. ويعيد الفن أيضًا صياغة الذاكرة الجماعية للكارثة، ويحولها إلى قيمة جمالية تحمل دروسًا إنسانية وتاريخية، مما يخلق توازنًا بين المعرفة والعاطفة في فهم الكوارث.

ومن هنا نرى أن الكوارث الطبيعية تخلق بيئة خصبة للإبداع الفني من خلال تحفيز المشاعر الإنسانية. بالإضافة إلى توفير موضوعات للتأمل والتوثيق. كما تعزز دور الفن كأداة للتوعية والتعافي والتضامن الاجتماعي والإنساني. واحد من هذه الفنون التي اتخذت من الكوارث الطبيعية مادة لها هو الفن السينمائي؛ إذ

استطاعت السينما تقديم عديدٍ من الإعمال التي صورت الكوارث الطبيعية وتأثيرها على الإنسان والمجتمع، من خلال سرد كثير من القصص الشخصية والعائلية، التي عبرت عن الجوانب الإنسانية التي ظهرت وسط هذه الكوارث، مثل جوانب الألم والخوف والصمود، مما يعمق فكر المشاهدين تجاه معاناة الضحايا، ويحفز مشاعرهم للتعاطف والتضامن مع المتضررين. كما تعمل هذه الأعمال السينمائية على تسليط الضوء على عديدٍ من القيم الإنسانية. حيث تعرض الأفلام التي تتناول الكوارث الطبيعية كيف تظهر قيمة الكثير من القيم وسط الأزمات، مثل قيمة التعاون والمسئولية والأمل وقت الألم. مما يعزز هذه القيم في الوعي الجمعي، ويشجع على ممارستها في الواقع. كما تقدم الأفلام السينمائية كيفية تأثير هذه الكوارث الطبيعية على الفئات المهمشة والضعيفة. مما يسلط الضوء على أهمية العدالة الاجتماعية، ودعم الفئات الأكثر تضررًا، وتعزز القيم الإنسانية المتعلقة بالكرامة والمساواة.

وكنموذج تطبيقي لما سبق طرحه من أفكار، سنتناول واحدًا من الأفلام الهامة التي اعتمدت مادتها على إحدى أصعب الكوارث الطبيعية التي حدثت في القرن الحادي والعشرين، وهو تسونامي الذي ضرب سواحل المحيط الهندي عام ٢٠٠٤. وهو فيلم "المستحيل" أو "The Impossible" من إخراج المخرج الإسباني خوان أنطونيو. هذا الفيلم الذي اعتمدت قصته على الأحداث المأساوية التي خاضتها إحدى الأسر الإنجليزية في أثناء قضائها إجازة أعياد الكريسماس في تايلاند، في اليوم نفسه الذي ضرب فيه تسونامي سواحل الشاطئ

الذي يقضون فيه إجازتهم. عُرِض الفيلم لأول مرة في مهرجان تورنتو بكندا عام ٢٠١٢. وحصد إيرادات ضخمة عند عرضه في دور العرض السينمائي. قصة الفيلم هي قصة حقيقية حدثت بالفعل لأسرة إسبانية –تم تقديمها في الفيلم كأسرة إنجليزية– مكونة من زوج وزوجة وثلاثة أبناء سافروا جميعًا لقضاء إجازة الكريسماس في تايلاند. وخلال وجودهم في واحد من الفنادق الشاطئية على ساحل المحيط الهندي، ضرب تسونامي شاطئ الفندق فأطاح به وبمن فيه. حيث قذفت الأمواج بالشاليهات، وغطت الأمواج الشاطئ بمن فيه. فاندفعت الأم مع ابنها الأكبر في ناحية. وجرفت الأمواج الأب وباقي الأبناء في ناحية أخرى.

تقدم أحداث الفيلم مأساة هذه الأسرة في رحلة البحث عن بعضهم البعض. ويركز صانعوه على الجانب الإنساني أكثر من الجانب التسجيلي. حيث ابتعد الفيلم عن تصوير الكارثة كمجرد حدث مادي أو ظاهرة طبيعية، بل ركز على تجربة عائلة واحدة، مما حول الكارثة العالمية إلى كارثة شخصية وعاطفية. وذلك من خلال تقديم الصراع من أجل البقاء، والبحث عن أفراد العائلة المفقودين. وأيضًا التعامل مع الإصابات والدمار الحادث في المكان. ومدى تأثير هذا الدمار على الأفراد الذين تعرضوا له، سواء التأثيرات النفسية أو التأثيرات المجتمعية. ويقول مخرج الفيلم خوان أنطونيو عن هذا الأمر: "إننا نشاهد نشرات الأخبار ونحن في حالة أشبه بالتخدير أو انعدام الحس. النشرات تعرض علينا الأحداث لا الناس. كان هدفي أن أعرض ما لا تستطيع نشرات الأخبار أن تعرضه. أردت أن أصور تجربة عاطفية أو رحلة عاطفية وليس رحلة فكرية. رحلة عن

الألم وكيف أن الألم الجسماني يصبح ألمًا عاطفيًا. بالإضافة إلى أن هناك ألمًا ومعاناة في النجاة. إن المأساة حدثت على نحو سريع جدًا وفي ساعات قليلة، إلى حد أن الذين عايشوا التجربة لم يملكوا الوقت الكافي للتفكير فيها. هنا نجد الإنسان الضئيل في مواجهة القوة العاصفة، في معركة غير متكافئة. فالإنسان أعزل إلا من العاطفة الإنسانية وغريزة البقاء. مواجهًا محنته بالوحدة والتضامن والمحبة."

ويستمر حديث مخرج الفيلم: "من خلال البحوث التي أجريناها على الكوارث الطبيعية اتضح لنا أن الأفراد الذين يفقدون كل شيء يكونون الأكثر عطاءً وكرمًا وعطفًا على الآخرين. وبسبب هذا يبدو الفيلم أكثر صدقًا واقناعًا؛ إذ يحتفي بطاقة البشر على الحب والعطاء، ويؤكد انتصار الروح الإنسانية."

المراجع:

1- همام طه، هل يفكك الخيال الإبداعي كوابيس اليأس والفجيعة والاغتراب الكوني بعد الوباء؟ تحولات الفن التشكيلي في عصر كورونا، مؤمنون بلا حدود، متاح على: https://surl.lu/xbfbca

2- رهام سماعنه، صناعة فن الكارثة، متاح على: https://surl.li/zqdqkv

3- ادريس لكريني، أنسنة الأزمات: دور "الدبلوماسية الإنسانية" في تخفيف أضرار الكوارث الطبيعية، المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، متاح على: https://surl.li/urxuay

4- الكوارث الكبرى - لماذا التعلم مهم، مجموعة البنك الدولي، متاح على: https://surl.lu/rchjkx

5- كيف تسهم السينما في تعزيز الحوار الثقافي بين الشعوب، متاح على: https://surl.lu/zbbefy

6- تأثير السينما في الأزمات الإنسانية، القاهرة الإخبارية، متاح على: https://surl.li/putjoc

7- جواهر عبدالله القاسمي، السينما تعزز القيم الإنسانية لدى النشء، الشارقة ٢٤، متاح على: https://surl.li/ukjwvh

8- أمين صالح، فيلم المستحيل.. التغلب على الظروف المدمرة، الوطن، متاح على: https://surl.li/wrtgwq

9- المستحيل The Impossible – في أحلك اللحظات هناك دائمًا أمل، سوريا، متاح على: https://surl.lu/ejeoev

10- ريم عبد المجيد، السينما البيئية.. تغير المناخ في تناول هوليود وحدود التأثير، المركز العربي للبحوث والدراسات، متاح على: https://acrseg.org/41465

11- الكوارث الطبيعية الأكثر دموية في التاريخ، مصراوي، متاح على: https://surl.lu/zgvqeb

12- أسوء ١٠ كوارث طبيعية منذ عام ٢٠٠٠، واشنطن، عربي ودولي، متاح على: https://surli.cc/bgouoe

13-أسوء الكوارث الطبيعية التي ضربت العالم عبر التاريخ. تعرف عليها، لندن، الشرق الأوسط، متاح على: https://surl.li/dbeldm

14-الكوارث الطبيعية: التفسيرات العلمية، الآثار الاجتماعية، وتدبير المخاطر، الدار البيضاء، المؤسسة، متاح على: https://surl.li/oeysct

15- صهيب خزاعلة، مفهوم الكوارث الطبيعية، موضوع، متاح على: https://surl.li/koxbjw